سمر يزبك*

حياة على الهامش:

اليرموك لا يحمل من المخيم إلاّ الاسم
وجرمانا تجسيد حي لفكرة العزل

يحاول هذا التحقيق أن يرصد جانباً من الحياة اليومية في مخيمين من مخيمات مدينة دمشق هما اليرموك وجرمانا. واختيار هذين المخيمين لم يكن عفو الخاطر، أو كيفما اتفق، وإنما كان له دلالته؛ فمخيم اليرموك يمثل حالة "الاندماج" في المدينة بشرياً واقتصادياً، بعدما أصبح ضاحية جنوبية لدمشق، بينما يمثل مخيم جرمانا حالة "العزلة" البشرية والاقتصادية إلى حد ما. لكن هذا التحقيق يكشف تفصيلات أخرى خلف الانطباع الأول الذي يُحدثه التجول في أزقة المخيمين وأحيائهما. فالهوية الفلسطينية وخصوصية اللجوء في مخيم اليرموك باتتا أقل انسجاماً مع تحول هذا المخيم إلى سوق تجارية، بينما الانسجام الأهلي يبدو أكثر استقراراً في مخيم جرمانا. وبين الصور المتعددة للحياة اليومية في المخيمين ثمة حياة أخرى غير مرئية أو سديمية لهؤلاء اللاجئين، وهو ما يحاول هذا التحقيق أن يكتشفه أو يكشف عنه.

لا يعاني الطريق إلى مخيم اليرموك وحده الازدحام في وقت الظهيرة، فهذه حال المدينة أيضاً، التي أُقيم فيها المخيم، حيث يزحف إليها بتفصيلاته، ثم يشكل جزءاً من حدودها. والحذر واجب من كلمة "مخيم" عندما نتحدث عن اليرموك. فالكلمة ربما تحيل على تأويلات متعددة عن حالة الشوارع والناس. أمّا بالنسبة إليّ فلن تجعلني هذه الكلمة أشعر بأني سألمح وجه ذلك الشخص الذي جعلنا نبكي حين كنا أطفالاً نتابع فيلم "كفر قاسم" لبرهان علوية. لا مجال للتوقعات، فأنا أعرف المخيم جيداً، ولا ضرورة للحذر كما سأفعل لو كنت في زيارة أحد المخيمات الفلسطينية في لبنان. لكن هذه المرة يلزمني الوقوف في بداية مدخله العريض، والمشي كأنني لم أسكنه يوماً، ومحاولة التخلي عن ذكرياتي القديمة فيه، وهو الذي لا تقتصر سكناه على الفلسطينيين، كي أرى بعين باحثة تفصيلات المكان.

مدخل المخيم يشبه بوابة أي مدينة، أو بلدة صغيرة، في سورية: قوس حديدي مزين بالأعلام والورود والشعارات الوطنية عن الأمة العربية الواحدة ذات الرسالة الخالدة؛ صورتان كبيرتان إحداهما للرئيس الراحل حافظ الأسد، والأخرى للرئيس بشار الأسد. ولو كنت سائحة أجنبية لما خطر في بالي أبداً، أن أكبر تجمع للفلسطينيين في سورية سيكون خلف هذا القوس الحديدي.

صورة بوابة ومدخل مخيم اليرموك

لن ألمح، أنا أو أي شخص يمر من تحت هذا القوس، أي وجود محسوس لفلسطين. عرفت ذلك وأنا أتجاوز المدخل الرئيسي، وتذكرت قبضة التراب تلك. ففي سنة 2000 عندما قررت مع مجموعة من الأصدقاء زيارة الجنوب اللبناني المحرر، وذهبنا إلى بوابة فاطمة، رأيت بعيني، أول مرة، الأرض التي بكينا من أجلها دائماً: فلسطين.

هناك تماماً، عندما كنت أمد يدي تحت الأسلاك الشائكة، وأحاول وضع حفنة تراب في كيس بلاستيكي، لأجلبها إلى صديقتي الفلسطينية الممنوعة من دخول لبنان، وكذلك من دخول كثير من البلاد، والتي لا تملك هوية، ولأقول لها: "خذي هذا تراب فلسطين"، هناك تماماً وأنا أضع حفنة التراب في كفي، وألمح وجه أول جندي إسرائيلي أراه في حياتي، ثم أرفع رأسي وأنظر إلى تلك الحقول الخضر، بكيت وعرفت فلسطين أكثر، كما فعلت عندما أخذتني أمي إلى السينما لنحضر فيلم "كفر قاسم". بكيت حين خرجت من القاعة وسألتها إن كان الفيلم حقيقياً، وكنت أبلغ آنذاك الخامسة وستة أشهر من عمري حين قالت: "هذه هي فلسطين".

لا رائحة لفلسطين تحت القوس، فقبضة التراب تلك كانت أكثر وجوداً من هذا المكان الكبير الملآن بالضجيج والزحام وصياح الباعة ومحلات الألبسة ومطاعم الوجبات الحديثة، وبمحلات أنيقة بواجهات

زجاجية ملونة، فالشارع الذي أتجاوزه الآن هو الشارع الرئيسي في المخيم، ومَن يملك متجراً فيه، يُعد من الأغنياء. لا يمكن القول الآن إن هذا المكان ربما يكون تجلياً لأحد أكثر الإشكالات الفكرية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية الفلسطينية، فمع أنه أحد وجوه القضية الفلسطينية، إلاّ إنه لا يحيل على دراسته بصفته ظاهرة فلسطينية؛ فالدمج الذي حظي به الفلسطيني داخل المجتمع السوري كان أعلى بمراحل متقدمة عن باقي الدول العربية.

وحتى الآن، لا يزال مخيم اليرموك أكبر تجمع فلسطيني في سورية وفي العالم العربي، على الرغم من أن الأونروا لا تعترف به مخيماً، وكذلك مدينة دمشق ضمن مخططاتها التنظيمية، الأمر الذي ربما يعني أن هذا المكان قابل للإزالة![*]

نشأة المخيم

في سنة 1953 كانت مشافي دمشق ومدارسها تعج بالفلسطينيين. وفي جوار حي الأمين نشأ ما يعرف بمخيم "الأليانس"، ومنه بدأت عمليات نقل الفلسطينيين في سنة 1954 إلى ما يعرف الآن بمخيم اليرموك على مساحة تقدر بـ 2110 دونمات، حيث افتتحت مؤسسة اللاجئين مكتبها في مدخل المخيم الشمالي، وبدأت توزيع الأراضي بحسب الوضع العائلي والمناطقي أو القروي أو العشائري. وبالنسبة إلى مخيم اليرموك فالعوائل الفلسطينية الأولى التي سكنته لم تكن من منطقة صفد، كما هو شائع. والباحث محمود ديب يقول:

كانوا في غالبيتهم من قرى الجليل، شمال فلسطين. لمّا بدأ المخيم، شكّله قرويون من لوبية، الجاعونة، حطين، صفورية، وقليل منهم من الحولة. والذين قدموا من وسط فلسطين سكنوا في الأردن، ومن خرج من المدن في الغالب سكن في بيروت ودمشق، داخل المدينة.

في العموم بعد أن أعطت الهيئة العامة للاجئين في سورية مجموعة قطع الأرض الصغيرة التي تحولت إلى مخيم لاحقاً، لم تحدث حالات لجوء جماعي إلى المخيم، وبقي اللجوء إليه حالات فردية وعائلية، لذلك نستطيع القول إن نواته الأساسية كانت من قرى الجليل.

بدأ المخيم على شكل خطين غير متوازيين، وفي ستينيات القرن الماضي تم التوسع فيه في اتجاه الجنوب والغرب، وفي بداية السبعينيات بدأ التوسع شرقاً، وكانت الهجرة إليه تزداد من داخل المخيمات في سورية ومن خارجها أيضاً، وظهرت مناطق عمران عشوائية انضمت إليه، وبدأت تظهر عائلات غير فلسطينية، وصار السوريون من أبناء العائلات الفقيرة يعيشون جنباً إلى جنب مع الفلسطينيين، وشكلوا نسبة كبيرة من سكان المخيم.[*]

في النصف الأول من الثمانينيات نشطت تجارة الأراضي والبناء، وبدأ الفلسطينيون يشترون الأراضي من أصحابها في محيط المخيم. وفي سورية نشطت الهجرة من الريف إلى المدينة وتجمّع عدد كبير من السوريين في المخيم، بالإضافة إلى الأعداد المتزايدة من الفلسطينيين الذين كانوا يفضلون العيش فيه، فتحول إلى مركز رئيسي تتبعه عدة أحياء جديدة هي: حي التقدم؛ حي الثامن من آذار؛ حي العروبة. ومنذ ذلك الحين وحتى الآن، والمخيم يزداد توسعاً عند أطرافه الشرقية والغربية والجنوبية، غير أن هذا التوسع لم يعد يخص الفلسطينيين وحدهم، بل يجمع أغلبية الفقراء من السوريين أيضاً.

صورة حي العروبة

أكد كثيرون من السكان الذين التقيتهم في المخيم صعوبة تحديد مساحته الآن، وتشير الإحصاءات التي تقف عند حدود سنة 2002 إلى أن الشروط التي تنطبق على مناطق السكن العشوائي المحيطة بدمشق والتي تسمى أحزمة الفقر، تنطبق على المخيم أيضاً.

ويشمل عدم الدقة التعداد السكاني أيضاً، فالاختلاط السكاني وعدم الدقة في رصد حركة الهجرة إلى المخيم وحرمان بعض التوسعات العمرانية من دخول لائحة الإحصاء، أمور كلها تجعل الحصول على عدد دقيق لسكانه صعباً. فعلى سبيل المثال، هناك حي التقدم، وهو أكثر التوسعات العمرانية أهمية وأبنيته حديثة وسكانه في معظمهم من الفلسطينيين، وتشكل الطبقة الوسطى نسبة كبيرة منهم، إلاّ إنه لا يدخل في عملية الإحصاء، والأعداد التقريبية التي جمعها بعض الباحثين والدارسين تقف عند حدود أواخر الثمانينيات وأوائل التسعينيات. وعلى الرغم من أن محاولة إحصاء جديدة جرت في سنة 2002 فإنها تفتقر إلى الصدقية لغياب كثير من الحقائق عنها، ولأن نسبة كبيرة من الفلسطينيين الذين هاجروا إلى المخيم تركوا قيود

نفوسهم في مدينة دمشق، ولم ينقلوها إليه.

إنه في الحقيقة.. سوق!

لا يشكل سكان مخيم اليرموك نسيجاً اجتماعياً متناغماً، أو محدود الملامح، بشكل يسهل الحديث عنه، أو توصيفه، وهو بهذا يشبه في تركيبته ما حدث في مدينة دمشق، وما شهدته من تغييرات ديموغرافية مؤخراً، لأن المخيم وعلى الرغم من بدايته كمخيم للاجئين الفلسطينيين انتهى به واقع الحال إلى أن يكون بلدة صغيرة محيطة بدمشق وتتصل بحي من أقدم أحيائها، أي "الميدان".

شكل المخيم لساكنيه ولغيرهم سوقاً استهلاكية مهمة في دمشق، تنافس في بضاعتها أسواقاً كبيرة، مثل الصالحية والحميدية، وحركة البيع والشراء فيها غير خاضعة لمبدأ العرض والطلب فقط، بل لمبدأ المنافسة مع أسواق العاصمة أيضاً، فالمواد الاستهلاكية التي تباع في أسواق المدينة نجدها بسعر أقل في المخيم، وشارع "لوبية" المشهور أصبح معلماً شرائياً لكثيرين من أبناء دمشق الذين يتجهون إليه، وخصوصاً أبناء الطبقتين الوسطى والفقيرة الذين يجدون في المخيم فرصة شرائية تقيهم غلاء الأسعار في الأسواق الأخرى. إن هذا الشارع المشهور الذي يتفرع إلى اليسار من الشارع الرئيسي، ويقع في وسط المخيم تقريباً، يكاد يكون نقطة ازدحام خانقة في المخيم، مشكلاً مزيجاً غريباً من كل أنواع الثقافات والعادات التي تخضع لقانون العرض والطلب، وفيه ينتشر الباعة الذين يملكون محلات بيع الأقمشة والأحذية والحلويات والهدايا. ولا يشكل الفلسطينيون نسبة عالية منهم، فكثيرون هم من أبناء دمشق وريفها والمدن السورية الأخرى، وقد وجد هؤلاء في مخيم اليرموك فرصة ثمينة للربح والثراء. فمنذ بداية الثمانينيات، ثم في التسعينيات حتى الوقت الحاضر، شهد المخيم ازدهاراً اقتصادياً ارتبط بحركة البناء وقدوم رأس المال الدمشقي، وعودة أعداد من اللاجئين من دول النفط الذين أنفقوا رأس مالهم في مشاريع كبيرة فيه، بالإضافة إلى الأثرياء من الفلسطينيين الذين تزعموا فصائل سياسية واستفادوا من مواقعهم، وتغيرت طبيعة انتماءاتهم وولاءاتهم، لكن كانوا يتجهون في جميع الأحوال إلى تشكيل طبقة من الأثرياء محدثي النعمة.

صورة بداية شارع لوبية

كان كثيرون من الناشطين سياسياً في المخيم يتحولون يوماً بعد يوم إلى مسؤولين ووجهاء، وهؤلاء بالضرورة لا يؤدون دوراً اقتصادياً فقط، إذ لديهم صلات وثيقة بأصحاب القرار السياسي خارج المخيم، بل أدواراً معينة يقومون بها أيضاً، وارتباطات غير مفهومة بالأمن السوري، وبجميع الفصائل ومختلف الطبقات، على الرغم من أن الناس العاديين غير معنيين بتغيير هؤلاء الزعماء، بعد فقدان أملهم بكل شيء، وانصرافهم عن فلسطين، وتسليمهم الله عزّ وجل قضيتهم، كما يقولون.

في أوائل التسعينيات وقبل أن يظهر المد الديني واضحاً، كانت تأثيرات الانفتاح الاقتصادي في المخيم تتمحور حول تأسيس مجتمع أكثر مدينية من نظام القبيلة أو العائلة أو العشيرة، لأن النساء نزلن إلى سوق العمل، وصارت مرجعيات المجتمع لا تتعلق بطبيعة الانتماء الديني أو القبلي، كما أن المرجعية العائلية تحولت إلى أساس في هذا التجمع الخليط. وما حدث لاحقاً بعد أواسط التسعينيات حتى أيامنا هذه، يدفع إلى التساؤل: ألا يمكن اعتبار مخيم اليرموك مثالاً ونموذجاً مصغراً لما يحدث من تغييرات في سورية؟

تختلف الإجابة عن هذا السؤال عند ساكني المخيم بحسب السن، والوضع الاقتصادي، والسنة التي تمت فيها الهجرة إلى المخيم.

لا أسمع ولا أتكلم إلاّ عن المخيم

محمد أ. في الثلاثين، وافق على أن يقابلني على مضض، وعندما مددت يدي لأصافحه، وضع يده على صدره وأحنى رأسه. كان يجلس في بيته المكون من ثلاث غرف وصالون كبير، ويقع في شارع فرعي مطل على "شارع العروبة". تمتلئ جدران بيته بصور الشيخ أحمد ياسين وخالد مشعل وآيات قرآنية في إطارات ذهبية. قال إن المخيم بحاجة إلى إصلاح جذري لأن الفساد يعمّه، والناس بحاجة إلى الهداية من أجل فلسطين، وإن تحرير فلسطين سيكون على يد المقاومة الإسلامية. وعندما سألته عن رأيه في التغييرات في المخيم وأسبابها، وإن كان لها علاقة بما يحدث في سورية، أجاب قاطعاً بعد أن بسمل واستعاذ من الشيطان الرجيم: "لا دخل لي بما يحدث خارج المخيم. أنا هنا أعيش وهنا أفكر، وهذا البلد كريم معنا ولن نسيء إليه."

أجبت: "ومن طلب إليك الإساءة؟" رد فوراً: "يعني باختصار أنا وافقت أن أراك من أجل أم محمد، وبصراحة لا أحب أن تحدثيني بهذه الطريقة، ولا أريد أن أتحدث إلاّ عن فلسطين." وتابع قائلاً: "والآن لن أفيدك بشيء مما تريدينه، لكن المهم أن الناس تهتدي الآن، ودیننا سوف يستعيد لنا حقنا."

عندما خرجت من بيته، رافقتني زوجته وعيون الفضوليين. وقالت لي الحاجة أم محمد: "ضعي غطاء على رأسك في المرة المقبلة، سيكون هذا أكثر سهولة لعملك"، وغمزتني.

التقيت الحاجة أم محمد، منذ أعوام، عندما كنت أكتب سيناريوهاً عن النساء الفلسطينيات اللاتي شهدن نكبة 1948. وهي لا تعلق صورة لأي زعيم فلسطيني، وإنما هناك صور بالأبيض والأسود موضوعة فوق سريرها الوحيد في غرفة صغيرة على سطح منزل مكون من طبقتين: صورة لزوجها الراحل، وصورة لها مع أولادها الثلاثة، وصورة كبيرة تحتل نصف حجم الحائط لخريطة فلسطين. زارت بيت الله، وتقول أنها فعلت ذلك منذ زمن طويل، وقد سلمت الله مفاتيح عذابها. تحمل صرتها دائماً أينما تتحرك، وهي في الأساس لا تملك إلاّ ثوبين، وصندوقاً كبيراً، وسريراً وحصيراً بلاستيكياً ومخدة عريضة تجلس فوقها وهي تتابع شاشة التلفاز، ولا تغير قناتها: الفضائية الفلسطينية. بيتها في نهاية "حي التقدم"، قرب مقبرة الشهداء. تقول إنها دفنت ثلاثة شبان، أمّا ابنتها الصغرى فتعيش في دبي، وترسل لها مصروفها الشهري. سألتها إلى أي فصيل سياسي انتمى أولادها، فقالت: "إيش دراني. ما أعرف.. كانوا مع أبو عمار.. الكل كانوا مع أبو عمار. ماتوا كبل ما يكتلوه اليهود ويتكاتلوا ويدبحوا بعضهن."

تروي الحاجة أم محمد ذكرياتها عن نشأة المخيم: تظنين أنهم اختاروا هذا المكان بإراداتهم؟ لم يفعلوا، جاؤوا إلى هنا وسكنوا بعد أن اختاروا الأرض عشوائياً. أنا سكنت في مدرسة، وأختي ولدت ابنها ومات هناك، أنا أعرف فلسطين شبراً شبراً، الناس تغيرت ولم تعد نفسها.. تسألين في أشياء مضحكة.. إنتن بنات هذه الأيام نصف مخبولات! كيف يعني تغييرات!؟ هذا المخيم ليس مخيماً. هذا مكان يعيش فيه بشر، وهو لم يعد يخص الفلسطينيين. هل شعرت أنك في فلسطين؟ تسأل وأهز رأسي بالنفي. تقول اذهبي إلى عين الحلوة في لبنان وهناك ستشعرين أن فلسطين هناك! اللبنانيون منعونا من الاندماج في المجتمع، لا يوجد لدينا حقوق كالتي نعيشها في سورية. أنا رحت إلى بيت ابني هناك قبل أن يستشهد، كان من جماعة أبو عمار، زرته مرة واحدة، ممنوع علينا أن ندخل لبنان كما نريد، المهم هذا المكان.. المخيم تغييراته في عقول أبنائه، ذاكرتهم هي مكانهم، الثابت الوحيد الذي لا يتغير هو فلسطين، إنهم لا يعيشون فيه، يعيشون في فلسطين، ولا ينتمون إلى هذه المدينة، هذا المخيم واقف على شعرة، شوفي كل يوم خلاف جماعة من "حماس" مع "فتح"، شوفي جماعة الحكيم وينهن.. وينهن؟!! المخيم فيه كل أنواع الفضائل الإنسانية وكل أنواع فسائدها، لا يختلف عن أي مدينة في سورية، ناسه... أقصد البعض من ناسه، ليسوا كلهم فلسطينيين.. بعضهم يعيش خارج مكانه.

أذكر سيرة إدوارد سعيد التي عنونها "خارج المكان"، وهذه العجوز تلفظ جملتها، ثم تتابع الحديث عن أبنائها الذين قتلوا واحداً بعد الآخر.

غربة مضاعفة

علي ش. شاب يبلغ الأربعين، يضع صورة جورج حبش على منضدة في غرفته وبضعة كتب قديمة بدا كأنه لم يلمسها منذ أعوام، بينما تزدحم جدران غرفته بصور أبو عمار، وأحمد سعدات، وأبو علي مصطفى، وفلسطين، ورسومات ناجي العلي، وصورة محمود درويش.

تتصل غرفة علي ببيت أهله من خلال باب مغلق. أخته تعمل في أحد محلات بيع الألبسة في الصالحية، وهو يعمل في طلاء المنازل. كان يدرس الحقوق، ووصل إلى عامه الدراسي الثالث، وهو يعيش حالياً بلا هوية منذ أعوام ولا يستطيع السفر. هو شبه عاطل عن العمل تقريباً، ولد في مخيم اليرموك، ولا يزال يعيش فيه. قال وهو يصب كأس الشاي، وبنات أخته الصغيرات يتحلقن حولنا وينظرن إليّ بفضول:

هذا المكان لم يعد مخيم اليرموك الذي تربينا فيه، كان هذا المكان بمثابة نقطة عبور في وجداننا، كان فكرة مصغرة عن فلسطين، عندما كبرنا قليلاً اكتشفنا أننا نعيش غربة مضاعفة، تغيرت عمارة المخيم، طبيعة قاطني المخيم اختلفت، تحولت الولاءات الوطنية إلى ولاءات دينية وسلطوية ومخابراتية، كان العمل السياسي محركاً مهماً في المخيم، الآن انظري ما يحدث. "حماس" تسود

الآن.. انظري للطفلات، ستجدين أن بنات الخامسة يضعن الحجاب، طفلات يمنعن من متابعة دراستهن، ويجلسن في البيت ويرتدين الحجاب. أموال هائلة تُضخ في المخيم، ومَن يفعل ذلك؟ اسألي الفصائل المسيطرة الآن، المخيم ليس بمنجى عما يحدث في سورية، أنا سجنت في فرع فلسطين من أجل مشاركتي في حلقة نقاش ثقافي، انظري ما يحدث حولنا. نحن الآن في رمضان، جربي أن تمشي في شوارع المخيم ساعة الإفطار لوحدك، وستتعرضين لمحاولة اغتصاب، الشوارع خالية وأنت سافرة! وضع المخيم بائس، تسوده الروح النفعية والولاءات السلطوية، ونحن نموت من الجوع. نصف سكان المخيم عاطلون عن العمل، قلة منهم من أصحاب رؤوس الأموال، أمّا الطبقة التي تشكل حداً وسطاً بينهم فأغلبها تميل للانطواء والانطفاء وعدم المشاركة في العمل السياسي... والعمل السياسي سيعني أن يبيع الواحد نفسه للمخابرات عبر قادة الفصائل.

المخيم لم يعد مخيماً.. انظري إلى أبنيته.. الشارع الرئيسي فقط هو ما يبدو أن البشر تعيش به، انظري إلى الألوان القاتمة التي تزين جدرانه ومقابره، هذا مكان خليط بشري يعد امتداداً لحزام الفقر المحيط بالعاصمة، وليس مكاناً لحالمين بحق العودة، مع ذلك تجدين أن المخيم لعب دوراً مهماً في الحياة السياسية والثقافية في سورية، والكثير من الأحزاب السياسية نقلت نشاطاتها إلى المخيم.

سيدة طلبت عدم ذكر اسمها قالت: "دليني على واحد من قيادات الفصائل يستطيع الدخول إلى المخيم من دون حرس شخصي، ولا يكون مدججاً بالسلاح والخوف. لقد فقد ابن المخيم ثقته بقادته، وهذا ليس بجديد. لقد حدث ذلك منذ سنوات طويلة، نحن نعيش في قلق دائم ونعرف أننا وحدنا بعد اتفاق أوسلو 1993. الكثر من أبناء المخيم صاروا يفكرون بالبقاء داخل سورية."

ما عاد مفهوم المخيم كما هو، إذ تخلى عن كثير من صفاته التي تكونت منذ بداية الخمسينيات، وانتهى إلى تجمع كبير لخليط سكاني من مختلف طبقات الفقراء، ومختلف الطبقات السياسية التي لم تشكل نسيجاً متناغماً. لذلك بدا مخيم اليرموك دائماً على أهبة الانفجار، وشكّل مصدر حذر وقلق لكثيرين.

مقبرة الشهداء

عندما كنا نجتاز "شارع التقدم" في اتجاه مقبرة الشهداء، كانت أم محمد تخبرني أن أحد ولديها مدفون فيها، وأننا يمكن أن نقف عدة دقائق أمام قبره. تقع المقبرة في الطرف الجنوبي للمخيم في نهاية "حي التقدم"، أحد الأحياء المتفرعة منه، ومسورة بجدار حجري، وبوابة حديدية كبيرة. حاولنا أنا وعامر مطر (المصور) التقاط صورة، فركض في اتجاهنا رجل شديد السمرة لا يكاد يتكلم، ويتأتئ بشدة، وقال صارخاً: "التصوير ممنوع". قلت له: "لماذا؟" رفع حاجبيه وأجاب بكلمات غير واضحة: "جيبي تصريح من الضابط." منعني من دخول المقبرة لأني أحمل آلة تصوير. قلت له: "لن أُصور"، نظر إليّ بارتياب، ووقف على باب المقبرة. في الحقيقة لم أكن أنوي افتعال أي مشادة معه، فقد بدا منظره يدعو إلى الرثاء وهو يقف بصدره العريض وثيابه الممزقة يحمي قبور الشهداء من آلات التصوير التي تحتاج إلى إذن ضابط الأمن!

صورة بوابة المقبرة

في نهاية المخيم الذي تتفرع منه أحياء التقدم والحجر الأسود والعروبة، يبدو الوضع أشد قتامة من الشوارع الرئيسية، أو الفرعية العريضة قليلة العدد. وفي داخل المخيم وعمقه يتغير المشهد، إذ تصبح الأزقة أشد عتمة، والبيوت أكثر التصاقاً، والنساء اللاتي ربما تظهر واحدة بين كل عشر نساء سافرة أو من دون غطاء رأس، يختفين بالكامل. فأغلبية النساء في الأزقة محجبات، حتى الطفلات الصغيرات في سن 5 أو 6 أعوام، والنوافذ صغيرة، والمخازن أقل حجماً وأكثر عمقاً، وتشكل، في أغلبيتها، جزءاً من بيت صغير، كأنها كهف عميق غير واضح الملامح من الخارج، ويبدو اللونان البني والرمادي، وحاويات الزبالة هي النقاط البارزة في هذه الحارات.

مَنْ يسكنون هذه المناطق عاطلون عن العمل في معظمهم تقريباً، يعملون يوماً ويتعطلون يوماً، ومن نسائهم مَنْ يعملن خادمات في البيوت، أو عاملات في مخازن ألبسة، أو في مصانع لمواد استهلاكية بسيطة. كذلك تكثر صور قادة الفصائل بين جدار وآخر. أمّا صور قادة "حماس" فهي الكاسحة والناصعة والجديدة، بينما تتراجع صور ياسر عرفات، إذ تبدو قديمة، لكنها في أحياء أُخرى تبدو أكثر حياة. هناك صورة لقائد فصيل، وفوقها

وعلى الوجه تماماً صورة قائد آخر، وفوق الصورة الثانية صورة ثالثة، وهكذا...

في أماكن قليلة جداً، يمكن أن نرى صورة للشهيد أبو علي مصطفى، ففي كل الشوارع التي مررت بها، لم ألمح إلاّ صورتين له، كما أن ملصقات خريطة فلسطين بدأت تتراجع. وعلى الأبنية الحديثة الكبيرة نستطيع أن نلمح خريطة فلسطين إلى جانب صور القادة والزعماء التي يكثر الفلسطينيون لصقها على جدرانهم، فهم يحتاجون إلى رموز، وإلى أسباب جديدة كي ينتموا إلى وطنهم. ربما يحتاجون إلى أن يثبتوا أنهم لا يزالون أصحاب قضية، مع أن وجوههم المتعبة تقول عكس ذلك، فهي تقول أموراً كثيرة يبدو التفكير فيها أمراً صعباً وقاسياً، عندما يكون القاسم المشترك بينها هو لقمة العيش.

إسرائيل والسجائر والعصبية

يخضع شباب المخيم وشاباته، في معظمهم، للشروط نفسها التي تسري على الجميع في سورية تقريباً، باستثناء أن الحديث عن إسرائيل وتدخين السجائر والانفعال هي ما يميزهم من مجايليهم من السوريين الذين يقطنون في جوارهم. فقد قال لي شاب في العشرين من عمره إن أكبر نسبة لتعاطي الحبوب والحشيش والمخدرات هي هنا في المخيم. قال ذلك وهو يغمض عينيه نصف إغماضة، ويدخن نارجيلته أمام محل لبيع الأدوات المنزلية. "ما الذي تريدين معرفته عن هذا المكان؟ اذهبي من هنا، هذا أفضل لك."

شاب آخر قال إن الذين لا يتعاطون، ترينهم مكومين في الجوامع، منصرفين عن الدنيا استعداداً للجهاد. وقد لفت انتباهي ما قاله هذا الشاب الغريب الأطوار، الذي يرتدي ثياباً على الطريقة الأميركية، ويرسم وشم فلسطين على ساعده، ويضع قلادة حنظلة. قلت له: "رحم الله ناجي العلي"، فسألني: "من ناجي العلي؟" قلت: "هذا الذي تضع قلادته في رقبتك." نظر إليّ بغرابة، ثم هز رأسه قائلاً: "قولي لمن أرسلك أن يبعث برجل إلى هنا." قلت له: "سؤال أخير: ماذا عن عمل المنظمات الدولية هنا، أشعر بأنه عمل ضعيف؟" أجاب وهو يوشك أن يمشي: "الأونروا تجدينها في المدارس وفي... في الحقيقة الأونروا ضعيفة هنا... الطلاب في المدرسة فقط يستفيدون منها. في اليرموك لا تبدو خدمات هذه المنظمات واضحة مثل مخيمات أُخرى، والسبب أنه لم يحسب مخيماً!" يقول جملته الأخيرة وينصرف مسرعاً.

نسبة كبيرة من الشباب الفلسطينيين، وعلى غير المألوف في المجتمعات حيث ينصرف هؤلاء إلى الحياة، اتجهت صوب التشدد الديني والعناية بيوم الآخرة، الأمر الذي لم يكن جديداً بالنسبة إلى وضع المخيم، بل بدأ تأسيسه منذ أعوام، ومن أسبابه عوامل داخلية وخارجية. يقول الكاتب حمد سعيد الموعد في كتابه "مخيم اليرموك: مقاربات في سسيولوجيا المخيم الفلسطيني": "لا نبالغ إذا قلنا إن صعود الإسلاموية والسلفية والصوفية كان من أبرز سمات العمل السياسي في اليرموك خلال عقدي الثمانينات والتسعينات." ويشرح المؤلف أن هناك أسباباً عامة وخاصة لهذا المد الديني الإسلامي في اليرموك، منها المتغيرات الدولية والإقليمية، مثل الثورة في إيران سنة 1979، وسقوط الاتحاد السوفياتي، والفشل الذي منيت به الحركات اليسارية والشيوعية في العالم العربي، والإحباط الشعبي من النخب الحاكمة، والفساد، وتنامي ظاهرتَي القمع والدمار اللذين لحقا باقتصادات الدول العربية، ثم يشرح العوامل الخاصة ويوجزها بالانقسامات التي تعرضت لها الساحة الفلسطينية في الثمانينيات تحديداً، بعد خروج الفلسطينيين من لبنان، فهي أمور كلها أدت إلى ظهور الحركات الإسلاموية، ولا سيما بعد انطلاقة الانتفاضة الفلسطينية الأولى في الفترة 1987 – 1993.

مخيم جرمانا العائلي!

لم يكن الوصول إلى مخيم جرمانا صعباً، فهو يقع بالقرب من البلدة التي أقطن فيها، أي جرمانا، ولذا سمي باسمها. ويبعد المخيم ثمانية كيلومترات عن دمشق من الناحية الجنوبية الشرقية على الطريق إلى مطار دمشق الدولي. وقد أُنشئ سنة 1948، وفي سنة 1967، رُحِّل إليه الفلسطينيون الذين لجأوا إلى مرتفعات الجولان ونزحوا جرّاء الحرب العربية – الإسرائيلية.

يُعدّ مخيم جرمانا أحد المخيمات الأساسية التي تعترف بها الأونروا، وهو يشغل مساحة 30.000 متر مربع، ويحدّه من الشمال منطقة أبو نوري – الطبالة، ومن الشرق حي الدويلعة، ومن الغرب أوتوستراد المطار، ومن الجنوب بلدة جرمانا التي يُعدّ إنشاء طريقها السريع نكبة للمخيم، إذ هُدم العديد من المساكن من أجل شق هذا الطريق.

بدأ جرمانا اسماً على مسمى: مخيم من الخيام في سنة 1949، مع طلائع اللاجئين القادمين بالآلاف من منطقة الجليل الأعلى ومنطقة سهل الحولة، ومن قرى مدينة طبرية، الذين أقاموا في بقعة الأرض التي تُعدّ تابعة لمنطقة الشاغور. وبعد أن طال المقام بدأ السكان يبنون بيوتاً من الطين، وبدأت تظهر معالم المخيم وشكله. وسرعان ما تغير المخيم في سنة 1979 جرّاء حركة نزوح جديدة ومغايرة ضمت فلسطينيين كانوا لجأوا في سنة 1948 إلى مدينة القنيطرة، وسوريين نزحوا من قرى الجولان بعد حرب 1967، واستقروا في المناطق الشمالية من المخيم، وخصوصاً في محيط حي أبو نوري. ولعل لجوء هؤلاء إلى هذا المخيم بالذات هو دليل على مدى الترابط، أسرياً وقروياً، باللاجئين الفلسطينيين الذين وفدوا إليه في سنة 1948. ثم انقسم المخيم قسمين: صار المخيم القديم يسمى حارة الوطنية، وسُمي الحي الجديد حارة النازحين. أمّا الحارات الأخرى فسميت بأسماء القرى الفلسطينية التي هُجّروا منها، مثل: الناعمة؛ الصالحية؛ القيطية؛ جاحولا؛ الدوارة؛ المفتخرة؛ الزوق؛ الخالصة؛ الخصاص. أمّا الدفعة الثانية من النازحين فكانت معاناتها تفوق معاناة اللاجئين الأوائل، إذ طال سكنهم في الخيام، واحتاجوا إلى وقت قبل أن يتمكنوا من بناء بعض البيوت الطينية.

صورة حارة في مخيم جرمانا

وصل عدد المساكن في مخيم جرمانا قبل سنة 1985 إلى 2414 مسكناً، لكن الحكومة السورية نقلت 311 أسرة خلال الفترة 1985 – 1986 إلى مخيم الحسينية الناشئ حديثاً، بسبب وقوع منازل هؤلاء على شبكة الطرق الحديثة وشبكات الصرف الصحي الجديدة، ثم نقلت 411 أسرة أخرى إلى المشروع السكني الجديد في الحسينية أيضاً. وتتالت عمليتا الهدم والنقل ليشكل أبناء مخيم جرمانا الكتلة الأساسية لمخيم الحسينية الجديد. ومنذ فترة قريبة تغير شكل المخيم بعد شق الطرق ومد الجسور، فقد هُدم كثير من البيوت، ولم يجد العديد من الفلسطينيين بديلاً من بيوتهم. أمّا الذين سكنوا في الحسينية فلا يزالون يعانون جرّاء صعوبات ومشكلات كثيرة، علماً بأن مخيم الحسينية يقع إلى الجنوب من حي السيدة زينب، ولا يعد تجمعاً فلسطينياً.*

وثمة ترابط أسري وقروي واضح وقوي في مخيم جرمانا، وهو أكثر وضوحاً وقوة من مخيم اليرموك؛ فالمخيم لا يزال يحافظ على علاقاته القروية، ولم يدخله بَعْدُ رأس المال اللازم لتغيير حياته، ولم يسكنه السوريون الفقراء، وهو يعتبر مجتمعاً متماسكاً إلى حد ما على الرغم من رحيل كثير من العائلات إلى مناطق أُخرى.

تغطي الأونروا الخدمات الاجتماعية المقدمة للمخيم نتيجة حالة الفقر التي يعيشها أبناؤه، وقد قُدرت حالات العسر الشديد في سنة 1992 بـ 79 عائلة (أو 282 لاجئاً)، وتطور هذا العدد وازداد حتى بلغ 534 عائلة تضم 1847 لاجئاً.

وعلى الرغم من أن الفقر يشكل السمة الأساسية في حياة أبناء مخيم جرمانا، فإن كثيرين من أبنائه تعلموا، وبرز منهم مهندسون وأطباء عملوا، في معظمهم، في الشأن السياسي، وهي سمة مشتركة تخص الفلسطينيين أينما يتوزعوا على جهات الأرض، وكيفما يتناثروا في الشتات، لكن تبقى الشريحة الأكبر فيه من العمال والشغيلة الذين يجدون ملاذهم في العمل في المعامل القريبة وهي: معمل الزيت؛ الشركة الحديثة؛ الخماسية؛ المعلبات؛ أو يعملون حمالين في ساحات دمشق. وهناك مَنْ يعملون باعة متجولين وأصحاب محلات بسيطة في المخيم. كذلك يلفت النظر عمل المرأة في المخيم، فالنساء في أغلبيتهن يعملن خارج البيت، ربما نتيجة الفقر الشديد، ومنهن مَن يعملن في خدمة البيوت، أو عاملات في المعامل القريبة مع الرجال، ومنهن مَن يشاركن في نشاطات ثقافية واجتماعية، وقد نجد نشاطاً سياسياً لبعض النساء، لكنه يبقى محدوداً.

الواقع الصحي

يقع المخيم تحت مسؤولية الأونروا، فهناك مركز صحي يقوم على خدمة اللاجئين يومياً، وعلى مدار الساعة، إضافة إلى مستوصف الشهيد أحمد أبو عمر، وهو مستوصف مجاني تابع لجيش التحرير الفلسطيني. والغريب أن سكان المخيم يعانون أمراضاً مشتركة، منها: فقر الدم المنجلي؛ الضغط؛ السكري؛ التلاسيميا. ويشتري السكان مياه الشفة، لأن مياههم غير صالحة، مع أن الخدمات العامة في المخيم تشرف عليها الأونروا والهيئة العامة للاجئين الفلسطينيين، كما تتولى الأونروا الإشراف على النظافة.

كنت زرت المخيم قبل عامين، مع مجموعة من الناشطات النسويات، للاطلاع على جريمة شرف،

وعرفت كم هو صعب الحصول على معلومات دقيقة. كان الدخول إلى المخيم أمراً صعباً قبل توسيع الطريق، وسكانه يرتابون من الأسئلة عندما يكون السائل غير معروف، فعلاقاتهم، بعضهم ببعض، هي قبلية وعصبية بصورة عامة. وإذا كان من الممكن رؤية امرأة سافرة في مخيم اليرموك، فهذه الظاهرة تختفي كلياً في مخيم جرمانا. والظاهرة الجديدة التي لمستها بشكل مفاجئ هي مظهر الرجال باللحى الطويلة والشوارب الحليقة والعباءات القصيرة التي تجعلهم أقرب إلى شكل الباكستانيين.

لا وجود للصور هنا، وهذا ما يلمسه مَن يسير في المخيم، لكنه سرعان ما يكتشف كثيراً منها حول الجوامع التي تكاثرت، فهناك صور لخالد مشعل، وللشيخ أحمد ياسين، وللشهداء، علاوة على شعارات لحركة "فتح"، وصور لأبو عمار. هنا الوضع أكثر غرابة، فالعين ترى جميع أشكال الملصقات، وعندما تبحث عن الناس، لا تجدهم، فالمخيم عبارة عن كتل من الأسمنت ومن الجوامع، وعلى طرفه وفي الشارع الرئيسي تتنوع محلات تنظيف السيارات، وبيع الخردوات، والغرف الكبيرة المتلاصقة التي يتم فيها جمع العبوات البلاستيكية من حاويات القمامة، لأن كثيرين من أطفال المخيم يعملون في جمع القمامة وتفريغها من العبوات البلاستيكية والزجاجية.

مخيم يشبه المخيم. يشبه خياماً متراصة من حجر، كما يشبه وجوه أهله القاتمة التي ألمح، أول وهلة وأنا أراقبها، ذلك الألم وتلك المعاناة القاسية التي لم ألمحها في مخيم اليرموك. هذا مكان أستطيع أن أقول عنه إنه مكان لاجئ.. مكان خارج المكان!

المخيم... فلسطين الموقتة

لا شك في أن الحديث عن مخيمين من أشهر تجمعات الفلسطينيين يقود إلى الحديث عن فكرة الوجود في اللامكان. الفلسطيني دائماً خارج المكان، وخارج الفضاء، فالمكان يعيش في داخله، وهو الكائن الذي يتقمص المكان كحالة إنسانية استثنائية كما يفعل معظم اللاجئين في العالم.

ظاهرة المخيمات التي تحولت إلى مدن صغيرة طارئة في وجدان الفلسطينيين، تحمل في الوقت نفسه أمان الفلسطيني الشخصي، وعاداته، وتقاليده، وعصبياته، ودينه. وعلى الرغم من الروح الحضرية التي ربما تبدو هنا وهناك في بعض النواحي، فإنها لا تعدو كونها استجابة لتطور زمني بحت، ولا علاقة لها برغبة الفلسطيني في الانتماء إلى المكان. وتُعد المخيمات تشكيلات إنسانية لفكرة التيه والشتات التي تبث فكرة البحث المستمر عن النجاة والرغبة في العودة إلى الوطن، الرحم والهوية، مع أن المخيم لم يشكل عثرة في طريق تقدم المجتمع السوري الذي عاش فيه، وإنما على العكس، شكل على الأقل، على المستوى السياسي، حراكاً ونشاطاً غيّرا من ثبات المحيط العام وخوفه، وساهما في احتضان العديد من النشاطات السياسية.

لا نستطيع الحديث عن مخيم جرمانا بالقدر نفسه الذي نتحدث فيه عن مخيم اليرموك، وتحديداً على مستويي العمران والحراك السياسي، لكن المكانين يشتركان في كونهما مجهولي المستقبل، وخصوصاً أن اللاجئ الفلسطيني سيظل في انتظار بلورة حل لقضيته، وهو انتظار لا يزال طويلاً.

هل سيكون المخيم مكانهم الأخير ووطنهم الجديد، أم أنهم في رحلة التيه، يرمون متاعهم قليلاً، وبعد وقت سيهجرون، ويمرون بتيه جديد، وينسون المخيم، ليبدأوا رحلتهم في تكوين تجمعات يطلق عليها من جديد اسم المخيم؟ ■

(*) روائية سورية.

(*) يجاور مخيم اليرموك مخيم إضافي هو مخيم فلسطين، وهما يقعان في النطاق البلدي نفسه، والبعض يعتبرهما مخيماً واحداً.

(*) تشير أرقام الأونروا إلى وجود 144.000 لاجئ في مخيم اليرموك، لكن هذا الرقم لا يعكس حقيقة عدد السكان، الذي ربما يصل إلى 200.000 ألف نسمة.

(*) تشير إحصاءات الأونروا إلى أن عدد اللاجئين المسجلين في هذا المخيم هو 18.500 لاجئ، وفي إحصاءات أخرى 16.850 لاجئاً.